
الثقافة
والهوية والوعي العربي
د. محمود الضبع

الثقافـة
والهوية والوعي العربي

د. محمود الضبع

بتـــانة

الطبعة الأولى 2016

الضبع، محمود
الثقافة والهوية والوعي العربي / محمود الضبع -
القاهرة، بتانة، ٢٠١٦م
٢٦٦ ص، سم.
تدمك: ٩٧٨- ٩٧٧ - ٨٥٢٤٩ - ٩ - ٤
١-الثقافة العربية.



مبنى الجريك كامبس
١٧١ شارع التحرير. باب اللوق
الرمز البريدي: ١١٥١١
info@battana.org

رقم الإيداع
2016 / 9631
الترقيم الدولي
978 - 977 - 85249 -9 - 4

الفصل السادس
الثقافة والهوية الثقافية

الثقافة / التنوع :

يعد التنوع سمة طاغية من سمات الثقافة - أية ثقافة- ، التنوع في الأصول ، وفي الفكر والصياغة، وفي النتاج .

والتنوع الذي يصل إلى حد التعددية داخل الحقل الواحد من الحقول المعرفية التي تم تحديدها سابقا، والتعددية على مستوى الاقتصاد، والبيئة، والإقليم، والتنظيم الاجتماعي، ومن ثم التقدم والتخلف الناتجين عن الأصول المعرفية، وكيفية التعامل معها وإمكانات تطويرها والإضافة إليها من عدمه .

وقد ركز إعلان مكسيكو[1] بشأن الثقافة في البند الأول من بنوده على أن التعددية الثقافية «تشكل جوهر الذاتية الثقافية حيثما تتعايش تراثات مختلفة»؛ وأن «إهمال ثقافة أى مجموعة أو تدميرها ينطوي على خسارة وإفقار للبشرية جمعاء».

---

1 - يمكن العودة في ذلك إلى أوراق عمل المؤتمر العالمي الثاني عن الثقافات السياسية - اليونسكو- والمنعقد في المكسيك - 26 يوليو 1982م .

وتقتـضي هــذه العبــارة الصريحــة ضرورة احــترام وقبــول ثقافــات الآخريــن، وهــو مايفــترض توفــر مبــدأ التســامح الــذي يــؤدي في آخــر الأمــر إلى الســلام بــين الشــعوب المختلفــة، وبــين الجماعــات المتباينــة ثقافيــا داخــل المجتمــع الواحــد. وهــذا مــا يمكــن إدراجــه تاريخيــا عــلى الثقافــة العربيــة الشــاملة الســائدة في العــالم العــربي بمختلــف شــعوبه.

فــإذا كانــت الثقافــة العربيــة ترتكــز في وحدتهــا عــلى المعتقــد واللغــة والــتراث وبنيــة العقــل عــلى نحــو مــا، فــإن هــذه الوحــدة العامــة، تنطــوي عــلى قــدر كبــير مــن التنــوع اللغــوي والعرقــي بــل والدينــي (كعقيــدة)، وهــو تنــوع مرتبــط بتمايــز الجماعــات الفرعيــة داخــل الوحــدة الكليــة.

والتنــوع عــلى هــذا النحــو لا يعــد عيبــا، ذلــك أنــه ســمة عامــة في كل الثقافــات العربيــة وغــير العربيــة، فمــن يســهمون في صياغــة الثقافــة دومــا لا ينتمــون إلى أصــول معرفيــة واحــدة، ولا إلى بيئــات تعليميــة تعلميــة واحــدة، ولا يتســاوون مــن ثــم في آليــات اشــتغال العقــل والفكــر عــلى نمــط واحــد.

ولكــن الأهــم في التعدديــة والتنــوع ليــس هــو التســليم بواقعهــا، وإنمــا كيفيــة التعامــل معهــا مــن خــلال مــشروع / مشروعــات ثقافيــة محــددة الأهــداف والأطــر، تســتطيع تفهــم الواقــع الثقــافي في ارتباطــه بالواقــع الاجتماعــي والســياسي مــن جهــة، والســعي نحــو صياغــة تقدميــة لتطويــر الوضــع الحــالي مــن جهــة أخــري، وتلــك هــي الأزمــة الحقيقيــة للثقافــة العربيــة في تاريخيتهــا ومســتقبليتها، إذ يظــل العمــل الفــردي وغيــاب المؤسســة والعمــل المؤسســاتي عــلى أقــل تقديــر هــو الســمة الغالبــة المهيمنــة، ومــن ثــم فــإن أي مــشروع ثقــافي لا ينطلــق مــن هــذا الوعــي فهــو مهــدد بالفشــل قبــل أن يقــوم، فواقــع الحيــاة المعــاصرة يقتــضي البحــث في آليــات مــا قبــل الثقافــة قبــل الانســياق في تطويرهــا.

إن الأمــر عــلى هــذه الشــاكلة يقتــضي رصــدا لبعــض النقــاط الجوهريــة التــي تمثــل بعــدا لايمكــن تجاهلــه مثــل: إعــادة النظــر في رؤيــة الثقافــة العربيــة للثقافــات الأخري

والبحث في رؤية الثقافات الأخرى للثقافة العربية، والتاريخ الإسلامي يزخر بعشرات المواقف التي تكشف عن موقف الثقافة الإسلامية من الثقافات الأخري فيما يتعلق بالعقائد والممارسات الحياتية والتقاليد والمحافظة على الحقوق المدنية لغير المسلمين إن فضلوا عدم الدخول في الإسلام، وقد أتى ذلك جميعه بثماره في أزهى عصور الإسلام إنتاجا ثقافيا في العصر العباسي، والأندلسي، والمصري الإسلامي، حيث تمت صياغة الثقافة العربية في هذه العصور، مع ملاحظة دخول غير العرب وغير المسلمين إلى ميدان صناعة هذه الثقافة (ابن المقفع وكليلة ودمنة، وموسى بن ميمون والنحو، وابن منظور المصري ولسان العرب، وغيره مئات الأمثلة والكتب والمؤلفات التي لاتزال تمثل المراجع الأصول حتي الآن). إلا أن المظلة الكبرى التي كان يستظل بها الجميع كانت هي الإسلام والعربية في آن، مع أفاق أرحب للتلقي والاشتغال، ومن ثم لايمكن قياس ذلك على الواقع المعيش الآن للتحولات التي طرأت على الواقع الثقافي العالمي، ومن ثم غيبة مفاهيم، وإحلال مفاهيم، واشتغال سياسات دولية تسعى لمحو هويات وإقرار هويات على الرغم من انطلاقها من مسلمات التنوع والتعدد الثقافيين[1].

ومن جهة أخرى فإن النظر فيما صاغته وتعمل على صياغته الثقافات الأخرى نحو العربية، أمر لايمكن تجاهله، ولايمكن في آن تصنيفه تصنيفا حكميا سريعا وسيأتي بالسلب غالبا، فالرؤية القاصرة أو المتحيزة من قبل الآخر (كل من هو غير عربي) قد لايكون منشؤها محاولة التقليل بقدر ما يكون عدم سلامة ما تم ترجمته من ثقافة عربية إلى هذه الثقافات، وحتى إن كان الأمر يتعلق بقراءته المباشرة في اللغة العربية ذاتها فالأمر لايسلم من قصور المادة المكتوبة، وعدم اكتراثها بتوجيه خطاب مباشر أو غير مباشر إلى الثقافات الأخرى للعمل على رصد ملامح الثقافة العربية بما يسمح باستيعابها أو تقبلها على

1 - انظر في ذلك مثلا: تقرير التنمية البشرية للعام 2004 «الحرية الثقافية في عالمنا المتنوع» - برنامج الأمم المتحدة الإنمائي.

نحـو إيجـابي.... فالتاريـخ الثقـافي العريـض للفكـر الفـارسي لـو لم تكـن هنـاك عقـول مشـتغلة بوعـي عـلى ترجمتـه إلى العربيـة لما كان لـه ذلـك الأثـر في تاريـخ الثقافـة العربيـة، وقياسـا عليـه اليونـاني والهنـدي القديـم، وغيرهـما، فالأمـر مرهـون دائمـا ليـس بترجمـة أو وضـع مؤلـف، بقـدر مـا هـو ترجمـة أو وضـع مـشروع فكـري ثقافي يسـمح دومـا بوضـع الآخـر في مسـاحته النصيـة مـن منظـور التأثـير الإيجـابي الفاعل.

مـن هنـا فـإن التعدديـة في ذاتهـا قـد لاتـؤدي لتعريـف ثقافـة، وإنمـا لابـد لهـا مـن أنسـاق عامـة تنتظـم تحتهـا هـذه التعدديـة، وعليـه فـإن أيـة محاولـة لتعريـف الثقافـة في العـصر الحـالي لايمكـن لهـا أن تتقـدم مـالم تضـع في وعيهـا هـذه التحـولات، ففـي عـام 1998 م أعلنـت هيئـة الأمـم المتحـدة أن عـام 2001 م سـيكون «عـام الحـوار بـين الثقافـات» وجـاء هـذا الإعـلان في بعـض أبعـاده عـلى الأقـل كنـوع مـن رد الفعـل المبـاشر عـلى مـا ذهـب إليـه الكاتـب الأمريـكي صامويـل هننجتـون في كتابـه «صـدام الحضـارات» مـن أن بعـض الحضـارات اللاغربيـة - ومنهـا الحضـارة الإسـلامية - تمثـل تهديـدا خطـيرا للحضـارة الغربيـة الحديثـة ومقوماتهـا الليبراليـة التـي تفتقـر إليهـا الثقافـات الأخـرى.

وبعيـدا عـن محـاولات الـرد التـي حتـما سـتكون موجهـة لنـا نحـن العـرب ولـن يتعـدى تأثيرهـا هـذا المحيـط، فـإن السـؤال الأهـم هـو: مـا الـذي يسـوغ لظهـور مثـل هـذه الأحـكام الباطلـة والمسـتعدية مـن وجهـة نظرنـا؟ ألا ينطـوي الأمـر عـلى أبعـاد تحتـاج إلى تحليـل لابهـدف بيـان أباطيـل مـا يقـال، وإنمـا بهـدف الكشـف عـن الأطـر العامـة للثقافـة العربيـة التـي غـدا أبناؤهـا أنفسـهم يجهلـون ملامحهـا الفارقـة، والأخطـر، يفقـدون الثقـة في قدرتهـا عـلى احتـمال التطـور، أو بنـاء مسـتقبل عـلى نحـو مـا.

إن مـا أعلـن في الغـرب حـول الثقافـة العربيـة، كان لـه أكـبر الأثـر في تعبئـة المشـاعر ضـد المسـلمين والعـرب حتـى داخـل أمريـكا ذاتهـا، ومـن ثـم جـاءت الريـح مواتيـة بعـد أحـداث 11 سـبتمبر2001 م، وغيرهـا مـن الأحـداث التـي

تعاقبـت في أمريـكا وأوروبـا، وبريطانيا،وأفغانسـتان، وإيـران، والـدول العربيـة ذاتهـا، والتـي يتـم إلصاقهـا بالمسـلمين حتـى قبـل أن تعلـن جهـة مسـؤوليتها عـن الحـوادث، وهـو أمـر يحتـاج إلى تفكـير عميـق، وجهـود ربمـا لايمكـن لمفكـر أو باحـث بمفـرده أن يتبنـى مسـؤوليته عـن القيـام بهـا.

والأمـر الثـاني الأكـثر خطـورة هـو تعـالي نـبرة الدعـوة إلى حـوار الثقافـات، والتقريـب بـين الثقافـات المختلفـة عـلى أسـاس مـن الفهـم والتقديـر الصادريـن عـن الاعـتراف بمبـدأ النسـبية الثقافيـة، الـذي يقـضي باحـترام الهويـات الثقافيـة لمختلـف الشـعوب، وهـو أمـر لايسـلم هـو الآخـر مـن اشـتماله عـلى أبعـاد خفيـة تسـعي لفـرض هيمنـات ثقافيـة عـلى حسـاب أخـرى، فهـل في المرحلـة الراهنـة فعـلا يمكـن القـول بـأن الثقافـة العربيـة قـادرة عـلى الدخـول في معـترك حـوار ثقافـات؟، ونعنـي في سياق التحـولات التـي طـرأت عـلى أسـاليب ولغـة الثقافـة (مثـلا التكنولوجيـا والكتـب الرقميـة، ولغـات البرمجـة الخطيـة ولغـة الصـورة وغيرهـا كثـير مـما تتعامـل معـه العربيـة بوصفهـا مسـتهلكا لا منتجـا).

الثقافة / الهوية:

يعـد مفهـوم الهويـة الثقافيـة أحـد المفاهيـم الفضفاضـة الواسـعة، إذا تمتـد حـدوده وتتشـابك مـع روافـد تاريخيـة وحـاضرة وأصيلـة تنتمـي إلى مجتمعـه، وواردة انتقلـت بفعـل التأثـير والتأثـر، ويصـل الإربـاك مـداه في محاولـة التعمـق الـرأسي، حيـث يمكـن أن تنـدرج تحتـه العديـد مـن السـمات المتشـابهة فيـما بينهـا، أو مـع هويـات أخـرى، كـما تنـدرج تحـت الهويـة الرئيسـة هويـات فرعيـة، وداخـل كل منهـا هويـات فرعيـة عـن الفرعيـة، وهكـذا، فمثـلا الهويـة الثقافيـة العربيـة، تنـدرج تحتهـا هويـات إسـلامية ومسـيحية، وكلاهـما تنـدرج تحتـه هويـات شـعوب، وداخـل كل شـعب تـأتي هويـات أقاليمـه المكانيـة والجغرافيـة، والسلسـلة لاتنتهـي.

ويمكـن تعريـف الهويـة الثقافيـة عـلى أنهـا الملامـح أو السـمات الفارقـة لثقافـة مـا عـن غيرهـا مـن الثقافـات، بمـا يجعلهـا تتميـز عن سـواها مـن معـارف متجاورة ومتداخلـة ومتشـعبة.

فـإذا كانـت الثقافـة هـي كل مـا أنتجـه الإنسـان مـن تطويـر فكـري وعمـلي، فإن الهويـة الثقافيـة تشـترط في هـذا الإنتـاج أن يكـون أصيـلا متفـردا يعـبر عـن ملامـح فارقـة ولايتماهـي مـع أيـة ثقافـة أخـرى، أو عـلى أقـل تقديـر يمتلـك خصوصيـة مـا تفرقـة عـن الثقافـات الأخـرى، فالثقافـة الدينيـة الفرعونيـة مثـلا عـلى الرغـم مـن التشـابه الواقـع بينهـا وبـين الثقافـة اليونانيـة، وبخاصـة في فكـرة تعـدد الألهـة، إلا أن كلتيهـما لهـا سـماتها الفارقـة الواضحـة للعيـان، والتـي يمكـن تعدادهـا في كل ثقافـة منهـما، وعـلى نحـو لايقبـل اللبـس أو الجـدال، وهكـذا فـكل ثقافـة يجـب أن تكـون لهـا خصوصياتهـا الفارقـة.

ويمكـن رصـد السـمات الفارقـة للهويـة الثقافيـة العربيـة مـن خـلال عـدة جوانـب، منهـا:

1. اللغة:

بوصفهـا اللغـة الأصليـة الأم، التـي يجيـد حاملهـا التعامـل بهـا، والإنتـاج في إطـار مرتكزاتهـا نطقـا وكتابـة، إذ لايمكـن أن يكـون هنـاك مثقـف ليـس لـه نشـاط كتـابي (خطـي) عـلى نحـو مـا، باعتبـار الكتابـة وسـيلة إنتـاج ووسـيلة نقـل معرفـة.

ويشـترط في اللغـة لتكـون هويـة أن يكـون حاملهـا ملـما بهـا اسـتماعا وتحدثـا ونطقـا وكتابـة بوصفهـا لغتـه الأم، ومتمكنـا مـن أسرارهـا ومصطلحاتهـا في حـدود حقـل اشـتغاله، إضافـة للإلمـام بالحقـول الأخـرى المتجـاورة عـلى أقـل تقديـر، فالمثقـف الاجتماعـي مثـلا بعـد إلمامـه بلغتـه العربيـة الأم، يضـم إلى جانـب إلمامـه بلغـة علـم الاجتـماع (مصطلحاتـه)، لغـة ومصطلحـات علـوم الفلسـفة، وبعضـا مـن العلـوم التجريبيـة، إضافـة لمصطلحـات العلـوم البينيـة مثـل التكنولوجـي والمعلوماتيـة وغيرهـا، وهـذا جميعـه بالإضافـة لبعـض لغـات العلـوم البعيـدة عـن

تخصصه مثل الفلك أو الطب أو الفيزياء، ذلك لأن المعرفة الآن لاينظر إليها بوصفها حقولا منفصلة، وإنما بوصفها نسقا كليا تتماهى حدوده ولاتنفصل انفصالا قاطعا حادا، يقول مارتن هيدجر: « ليس الحد ما يتوقف عنده شيء ما، الحد كما أدرك الإغريق، ما يبدأ منه شيء ما في حضوره»[2].

يضاف إلى ما سبق جميعه أن الفكر التطويري والتجديدي في أي حقل من الحقول يكمن عادة في الحقول بعيدة الصلة، فالكيمياء مثلا يمكن أن تمد النقد الأدبي بأفكار وتحولات في أنساقه قد لايمكن التوصل إليها في إطار التقوقع داخل إطار الأدب ونقده.

2. الأعراف والتقاليد:

وهي جملة الاتفاقات التي تتعارف عليها الغالبية العظمى من أفراد المجتمع، والتي تختزل الموروث وتضم إليه ما يستجد من سمات يفرضها النموذج الإيجابي للتطور الحضاري.

ومن المعروف أن العربية لها أعراف وتقاليد عريقة في هذا الصدد، بعضها سجلته الآداب والفنون، مثل الحكمة والأمثال الفصيحة والشعبية، والمواعظ، والقصص التراثي والشعبي، والسير والمواويل، إضافة لما دعت إليه الأديان من تقاليد تم إرساؤها عبر قرون من الزمان......... ذلك جميعه يمثل مرتكزا ليس بالهين قياسا إلى كثير من الأمم غير العربية[3] التي لاتمتد مرتكزاتها

---

2 - هومي بابا: موقع الثقافة، المجلس الأعلى للثقافة – مصر – نقلا عن: مارتن هيدجر: البناء والسكنى والتفكير.

3 - الأعراف والتقاليد العربية ترتبط بعدة جوانب، بعضها اجتماعي يعود إلى القيم التي تم إرساؤها بين المجتمعات، وهي متشابهة سواء أكان المجتمع قبليا أم ريفيا أم مدنيا يرتبط بطرق العيش وأساليب التعامل وأساليب التفكير، وبعضها ديني يعود إلى ما دعت إليه الأديان السماوية، وبعضها نفسي يمثل التزاما خلقيا بين الإنسان ونفسه وتأصل في طبيعة العرب، مثل الكرم مثلا، ونجدة الملهوف، ومساعدة المحتاج، وغيرها، وفي كل الأحوال فإن هذه الأعراف والتقاليد معروفة عن العرب منذ العصور الجاهلية أي قبل الإسلام بما يقرب من مائتى عام، أي أنها الآن يزيد عمرها على 16 قرن من الزمان.

الثقافيـة بشـأن الأعـراف والتقاليـد إلى أكـثر مـن قـرن ونصـف مـن الزمـان، وإن كان الأمـر بالنسـبة للعربيـة يحتـاج إلى تأكيـد عـلى الملامـح، وتنـاول لهـذه الأعـراف والتقاليـد بوصفهـا هويـة، ودراسـة أبعادهـا وكيفيـة المحافظـة عليهـا، والأهـم مـن ذلـك جميعـه الاعتـزاز بهـا، فدراسـات علـم الاجتـماع تشـير إلى أخطـار خفيـة عندمـا تـدرس تحـول المجتمعـات مـن الريـف إلى الحـضر مثـلا، وكيـف أنهـا في غضـون سـنوات قليلـة تتخـلى عـن أعـراف وتقاليـد لاتعـرف أنهـا مـن صميـم هويتهـا.

3. الموروث الثقافي:

بمعنـي الأدبيـات المعرفيـة التـي يمثـل المنتـج الحـالي امتـدادا لهـا إن اتفاقـا أو مغايـرة، ففـي رفـض القديـم كشـف عـن الانتـماء إليـه، فعـلى سـبيل المثـال فـإن التطـور الفنـي لبنـاء الشـعر العـربي مهـما حـاول الانفصـال عـن قديـم الشـعر، فإنـه يظـل منتميـا إلى الشـعر العـربي في مفاهيمـه الجماليـة التـي تـم تكريسـها مـن أسـلوبيات وجماليـات وبلاغيـات، وإن حملـت شـكل التطـور.

إن المـوروث الثقـافي حـاضر دومـا بذاتـه وبوجـوده المطلـق عـبر البنـى العقليـة والأشـكال الإنتاجيـة لـه، سـواء أكان هـذا الحضـور حضـورا متجسـدا عـلى نحـو واضـح، أم كان كامنـا في النفـس متحكـما فيـما يصـدر عنهـا.

فالـتراث العـربي يمثـل الذاكـرة المرجعيـة، أو الخلفيـة التـي ينطلـق منهـا الفكـر الثقـافي، سـواء أكان هـذا الفكـر الثقـافي متفقـا مـع معطيـات الـتراث، أم متضـادا معـه متشـاكلا مـع مرتكزاتـه.

ولـكي تعـبر الهويـة الثقافيـة عـن كينونتهـا الحقيقيـة فـإن حاملهـا (المتصـف بهـا) لتصـدق عليـه ينبغـي لـه الإلمـام جملـة بالـتراث العـربي في مجـال التخصـص، والإحاطـة علـما بالمجـالات الأخـرى، فالمثقـف الدينـي يجـب أن يلـم بالـتراث الدينـي عـلى اختـلاف تشـكلاته (نصـوص مقدسـة، وشروح وتفاسـير وفقـه وفلسـفة وعلـوم نشـأت مشـتغله عليـه)، ويمتلـك معرفـة عـلى نحـو مـا بالـتراث

الأدبي، والـتراث العلمـي، وهكـذا الحـال مـع المثقـف الفلسـفي.

ولكـن مـع العلـوم التجريبيـة التـي غـدا النظـر إليهـا بوصفهـا المقيـاس الأوضـح والأسرع للحضـارة المعـاصرة، مـع هـذه العلـوم فـإن المفهـوم السـابق للـتراث لايكـون سـليما، إذ إن الاختراعـات الحديثـة والمشـتغلين بمنتجـات التكنولوجيـا المعـاصرة، لايحتاجـون عـلى الإطـلاق إلى معرفـة التاريـخ الخـاص بهـذه العلـوم، وبخاصـة مـع الشـعوب العربيـة التـي لادور لهـا في منتجـات العلـم الحديثـة مـن أدوات ووسـائل ونظـم وبرمجيـات، وهنـا يقتـضي الأمـر أهميـة تحويـل اقتصاديات البلـدان العربيـة نحـو بنـاء قاعـدة معرفيـة، وتصميـم برمجيـات تسـمح لهـا بالتواجـد عـلى خارطـة الهويـة الثقافيـة المعـاصرة، وبخاصـة أن هـذه الخارطـة تتقـدم إلى الأمـام، ولايمكـن لهـا أن تتوقـف عنـد حـد، بـل إنهـا سـتمحو مـن عليهـا معـالم وحـدود مـن لا يسـتطيع التعامـل معهـا بلغتهـا أو لغـات أخـرى مضـادة قـادرة عـلى الوقـوف أمامهـا.

4. المعتقد الديني:

المعتقـد الدينـي يعـد أخطـر وأهـم ملامـح الهويـة الثقافيـة، ويتجسـد ذلـك مـن خـلال مظهريـن، أحدهـما يرتبـط بالمعامـلات، والثـاني يرتبـط بالأفـكار، والأول أوضـح وأدل، فالعـرب إمـا مسـلمون أو مسـيحيون (باعتبارهـما أكـبر ديانتـين مـن بـين ديانـات أخـرى فرعيـة)، والمسـيحية والإسـلام لايختلفـان عـلى المعامـلات والسـلوكيات، وإن كانـت بينهـما اختلافـات في شـأن العقيـدة، فكلتاهـما تدعـو إلى الصـدق والأمانـة والـشرف ومسـاعدة الآخريـن، وحسـن الخلـق، وغيرهـا مـن المعامـلات السـليمة، وكلتاهـما أيضـا تنفـر مـن الخيانـة وارتـكاب الخطيئـة وغيرها، وهـذه السـمات سـواء الإسـلامية، أو المسـيحية الشرقيـة تختلـط في كثـير مـن الأحيـان مـع العـادات والتقاليـد والأخلاقيـات العربيـة، فمـن المعـروف أن الديانات السـماوية عندمـا نزلـت أبقـت عـلى مـا هـو حسـن مـن ثقافـات الشـعوب، وعملـت عـلى إلغـاء مـا هـو متنـاف معهـا، وعليـه تتشـكل هويـة العـربي مـن

خلال معتقده الديني سواء أكان مسلما أم مسيحيا، على مستوى المعاملات أولا، وعلى مستوى معالجته الفكرية للقضايا والموضوعات التي يتعرض لها، فالمسلم يتوكل على الله، ويعرف متى يفرق بين التوكل والتواكل ـ نسبيا تبعا للوعي ـ وتلك هوية ثقافية دينية، والمسلم يمارس عقيدته على مرأى ومسمع من الناس، فيذكر الله كثيرا، ويستغفره، ويتوب إليه، ويصلي عندما يحل موعد الصلاة بالكيفية المتعارف عليها الصلاة عند المسلمين، وتلك هوية ثقافية لأنها لاتشترك مع هويات أخرى، فالصلاة الإسلامية تختلف عن كل أشكال وأنواع الصلاة للديانات الأخرى والعقائد الأخرى.

وهكذا يمكن رصد الكثير من الممارسات العقائدية والممارسات الدينية التي تفرق هوية العربي على غيره من الهويات العالمية، وما يكون لذلك من أثره في السلوك ومظاهره في الفكر.

5. القطيعة / الاتصال المعرفيين:

فالثقافة إما أن تحمل قطيعة مع الماضي التراثي، وهو ما يمكن اكتشافه والكشف عنه، أو تحمل اتصالا معرفيا مع الماضي وهو ما يمكن الكشف عنه أيضا، فدرجة الصفر للثقافة لا يمكن مفهوميا وشكليا أن تنفصل عن ماضويتها.

إن الأدب اليوناني منذ آثاره الواضحة التي وصلتنا متمثلة في أعمال يوربيدس وآيسخوليس وسوفوكليس وهوميروس أسس هويته الثقافية من خلال لغته ومضامينه التي يتعامل معها، ففي فكرة الآلهة المتعددة (آلهة للحب، وآلهة للخير، وآلهة للنماء) ما ينسب هذا الأدب إلى الفكر اليوناني، ولا ينسبه إلى ثقافة أخرى. والشعر العربي منذ الجاهلية الأولى ووصول أقدم نصوصه متمثلة في القصائد التي ارتبطت بحرب البسوس والمهلهل بن أبي ربيعة وجليلة بنت مرة، هذا الشعر يمنحنا شيئا عن البعد الثقافي للمجتمع متمثلا في ثقافتهم الدينية والاجتماعية، ومعتقداتهم الفكرية وأنماط العيش لديهم،

انظـر إلى السـموأل[4] يقـول:

إذا المَرءُ لَم يُدنَس مِنَ اللُؤمِ عِرضُهُ فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميلُ
وَإِن هُوَ لَم يَحمِل عَلى النَفسِ ضَيمَها فَلَيسَ إِلى حُسنِ الثَناءِ سَبيلُ
تُعَيِّرُنا أَنّا قَليلٌ عَديدُنا فَقُلتُ لَها إِنَّ الكِرامَ قَليلُ
وَما قَلَّ مَن كانَت بَقاياهُ مِثلَنا شَبابٌ تَسامى لِلعُلى وَكُهولُ
وَما ضَرَّنا أَنّا قَليلٌ وَجارُنا عَزيزٌ وَجارُ الأَكثَرينَ ذَليلُ
لَنا جَبَلٌ يَحتَلُّهُ مَن نُجيرُهُ مَنيعٌ يَرُدُّ الطَرفَ وَهُوَ كَليلُ
رَسا أَصلُهُ تَحتَ الثَرى وَسَما بِهِ إِلى النَجمِ فَرعٌ لا يُنالُ طَويلُ

فهـذا المثـال السـابق مـن الشـعر يعـبر عـن واقـع ثقـافي وفكـري وعقائـدي للمجتمـع العـربي القديـم في عصـور الجاهليـة مـن دعـوة إلى المعـالى، وحكمـة وتفاخـر وتواصـل اجتماعـي ومنعـة وإبـاء، ولم تـزل بعـد آثـار هـذا النمـوذج ممتـدة ومتحققـة في حياتنـا حتـى يومنـا هـذا.

أيضـا القـص عـلى لسـان الحيـوان – مثـلا – عـلى الرغـم مـن التحـولات التـي طـرأت عليـه[5] فإنـه يحمـل هويتـه الثقافيـة الشرقيـة متمثلـة في طغيـان الحكمـة والموعظـة، وعندمـا كتـب في فرنسـا عـلى يـد لافونتـين كان أدبـا تغريبيـا، تـم التعامـل معـه عـلى مسـتوى التلقـي بوصفـا أدبـا غرائبيـا، تمامـا مثلـما يتـم التعامـل

---

4 - السـموأل بـن غريـض بـن عاديـاء الأزدي.شـاعر جاهـلي حكيـم مـن سـكان خيـبر في شـمالي المدينـة، كان يتنقـل بينهـا وبـين حصـن لـه سـماه الأبلـق. هـو الـذي أجـار امـرؤ القيـس الشـاعر مـن الفـرس.. تذكـر كتـب الأدب أنـه ولـد سـنة 64 ق. هــ وتـوفي 560 م.

٥ - أصل كتابة القص على لسان الحيوان – كما وصلت أول نصوص يذكرها التاريخ له - في الهند القديمة على يد بيدبا الهندي في كليلة ودمنة الذي كتبه للملك الظالم دبشليم لينصحه رمزا، ثم انتقل إلى الفارسية عن طريق الوزير بزر جمهر، ومنه إلى العربية عن طريق روزبة بن داذويه (عبدالله بن المقفع)، ثم أبدع عليه شوقي نصوصا كان لها أثرها في إحياء هذا النوع الأدبي، ولا يستبعد أن يكون وجود شوقي في فرنسا قد كان له أثره في انتشار هذا الفن وبخاصة لافونتين، وإن كان القص على لسان الحيوان موجود في كل الآداب الشعبية، فالحكايا التي تحكى للأطفال على لسان الحيوان تدخل في إطار هذا النوع من الأدب، وهو ما يزيد الأمر تعقيدا إذ ما الملامح الفارقة للبحث عن هوية ما يحكى سوى الاعتماد على التحليل المضموني بمعنى رصد المفاهيم الثقافية ومجموع القيم والأعراف والتقاليد والأخلاقيات التي تسمح بانتساب هذا القص إلى ثقافة أمة دون غيرها.

مـع الأسـاطير اليونانيـة في الفكـر العـربي.

كذلـك الأدب الأندلـسي بعامـة لـه هويتـه الثقافيـة شـكلا في الموشـحات والمسـمطات والمخمسـات[6]، وموضوعـا في الحـب والتغنـي بالمحبوبـة وأثرهـا عـلى المحـب، وحتـى فيـما يتعلـق بالخمـر والتغنـي بهـا.

ومثلـه الأدب الشـيعي الـذي لاتخـرج موضوعاتـه عـن البـكاء والنحيـب عـلى مقتل الحسـين عليـه السـلام، ووقعـة كربـلاء، ومـا يتعلـق بهـا مـن أحـداث تاريخية.

6. الأشكال المادية للحياة:

وهـي أشـكال قـد تبـدو ماديـة، ولكنهـا في حقيقتهـا ترجمـة للثقافـة السـائدة، مثـل طـرق المـأكل والمـشرب، والملبـس (الأزيـاء) للرجـال والنسـاء والأطفـال، وطـرق الاحتفـالات بالانتصـارات والأعيـاد والأفـراح، وطـرق التعبـير عـن الهزائـم والأحـزان، والطـرز المعماريـة وأشـكال البيـوت، وأشـكال العيـش اليوميـة لديهـم، وهـذه الأشـكال إجـمالا وإن كانـت ماديـة إلا أنهـا ترجمـة لثقافـة أصحابهـا، بوصفهـا الناتـج عـن معارفهـم وبيئاتهـم، فالملابـس الفضفاضـة الواسـعة في البيئـة العربيـة هـي اسـتجابة لدراسـة أحـوال المـكان والبيئـة والاحتياجـات اليوميـة، عـلى حـين يختلـف الأمـر مثـلا في ثقافـة الإسـكيمو.

وفي الوطـن العـربي فـإن الملبـس عـلى سـبيل المثـال يمكـن ملاحظتـه مـن خـلال الأزيـاء الشـعبية لـكل أمـة مـن الأمـم العربيـة حتـى اليـوم، ويمكـن مـن خلالـه التمييـز بـين الرجـل المغـربي والخليجـي والفـلاح المـصري في ارتـداء كل منهـم

6 - كانـت هـذه الأنـواع موجـودة في الأدب العبـاسي، إلا أن التأثـير والتأثـر في هـذه المرحلـة – مرحلـة اسـتواء الأندلـس ونضجهـا الثقـافي – لايؤكـد إمكانيـة الأخـذ عـن المـشرق، بـل قـد يصـل الأمـر إلى حـد سـبق الأندلـس فيـه.

للجلباب أو العباءة، وكذلك يمكن التمييز بين المرأة المغربية والمصرية الفلاحة[7] والخليجيجة من خلال العباءة التي تأخذ شكلا يعطي للمكان هويته.

الثقافة / تشكيل الهوية الثقافية العربية:

مرت الهوية الثقافية العربية بمراحل من التشكيل والتشكل، ثم بمراحل أخرى من التطور، وإن كان الكثير من مرتكزات هذه الهوية قد ظل باقيا يتم توارثه في الغالب الأعم ويضاف إليه، وبخاصة الملامح المرتبطة بالجانب الإنساني والأخلاقي منه على وجه الخصوص، والذي شجعه الإسلام وحث عليه ومجده، مثل الكرم، والشجاعة، والأمانة، وحق الجار، ونصرة المظلوم، ونجدة الملهوف، وغيرها مما ارتكزت عليه الحضارة الإسلامية في نشأتها بوصفه جانبا قيميا.

وإذا كانت الهوية هي السمات الفارقة بين مجتمع وآخر، فإنه يمكن رصد ملامح الهوية الثقافية عبر التاريخ العربي، ولابأس هنا من العودة إلى فكرة العصور التاريخية، على أساس أن كل حقبة تاريخية قد تشكلت فيها ملامح عامة هي في إجمالها تمثل خصوصية للمجتمع العربي.

-7 من الملاحظ أننا بخصوص مصر نتحدث عن الزي الفلاحي بالنسبة للرجل والمرأة، ونعني به أزياء سكان الريف الشمالي، وسكان الصعيد في الجنوب، وكلا الفئتين هو المعبر عن الهوية الحقيقة لمصر بشأن الأزياء، فالمدن الكبرى عادة مثل القاهرة والإسكندرية هنا تفقد هويتها بشأن الأزياء، وهو ما حدث بالفعل، ويظل فقط النازحون إلى هذه المدن من الأرياف والقرى هم الذين يحافظون على أزيائهم التي تمثل هوياتهم، وهكذا الأمر في كل الدول العربية التي تحولت الأزياء فيها إلى النموذج الغربي، الأوروبي والإنجليزي بالنسبة للبلدان العربية في إفريقيا وحوض المتوسط في آسيا، والأزياء الشرق آسيوية بالنسبة لدول الخليج العربي والبلدان العربية في آسيا.... والتأمل يكفي.

الهوية الثقافية في العصر الجاهلي:

العربي الجاهلي تمحورت هويته الثقافية حول جملة من المعارف والقيم والتقاليد التي اقتضتها طبيعة الحياة، وطبيعة التكونات الاجتماعية للبشر، وبخاصة أن المجتمع كان قبليا في المقام الأول، سواء اعتمد على الترحال، أم أقام في قرى، ومضارب وخيام حول الماء أو قريبا منه، وفي كل الأحوال كانت هناك موضوعات بعينها هي الممثلة لهوية العربي، بعضها يرتبط بالأخلاقيات والقيم والمثل العليا في حياته، وبعضها يرتبط بالانتماء إلى القبيلة والالتزام برأي شيخها والامتناع عن كل ما يشين هذه القبيلة، وبعضها يرتبط بأساليب العيش والمأكل والمشرب والملبس، وبعضها يرتبط بالعقائد، وهكذا يمكن تصنيف ملامح الهوية الثقافية للعربي في العصر الجاهلي في كونها تدور حول:

• المعارف: الأنساب – اقتفاء الأثر – النجوم – علوم الحياة من تربية الحيوان والصيد.

• القيم: بما فيها من قيم إيجابية وسلبية، كما يصدر عليها الحكم المعاصر، إذ هي في آنيتها كانت جميعها إيجابية، ومنها: الكرم – نجدة الملهوف – الحمية – الشرف - العصبية القبلية -........ وغيرها.

• الجانب الاجتماعي المتمثل من جهة في نسق المجتمع وتراكبه الطبقي من أسياد وعبيد، ومن جهة أخرى في التقاليد التي يمكن رصدها من خلال مراسم الحياة الاجتماعية من زواج واحتفالات ووفاة واجتماعات، وحروب، ومنازلات، وعصبية قبلية وغيرها مما كشف عنه الشعر العربي وقصائده، وكتب التراث التي سجلت لأيام العرب ووقائعهم، وحكاياتهم وأخبارهم، وإن كانت في إجمالها قليلة لأنها كتبت بعد ظهور الإسلام بقرنين من الزمان على أقل تقدير، وهو ما جعل كثير من الملامح لايتم ذكرها أساسا تحرجا من الموقف الديني إلا في سياق الاستشهاد بفضل الإسلام على تغيير أنماط الحياة وتحسينها.

• الجانب الديني العقائدي، والمتمثل في عبادة الأصنام لدى الغالبية العظمى من المجتمع العربي وقبائله، وتوزع البقية الباقية بين المسيحية واليهودية وعبادة الأوثان والصابئة والمجوس، وغيرها تبعا للموقع الجغرافي وتجاوره مع حضارات لها دياناتها.

الهوية الثقافية في العصر الإسلامي:

لاشك في أن الإسلام كان له أكبر الأثر على الهوية العربية في جوانب كثيرة، حيث منحها سمات ظلت وستظل مؤثرة في المجتمع العربي والهوية العربية مدى الحياة، وهو ما يمكن رصده من خلال:

• الجانب العقائدي: الذي جاء بعقيدة التوحيد، وهي في حد ذاتها هوية وخصوصية لم تزل تفرق الإسلام وأهله عن بقية البشر في العالم أجمع، وبين الديانات جميعها، إذ إن الإيمان بأن الله موجود، وله في كل مكان وجود، وإن لم يكن له حيز مرئي من الوجود، وأن له ملائكة نورانيين، وأنهم مخلوقون من جنس إرادة الله فقط، وأنه لاإرادة لهم إلا الإرادة الإلهية، إضافة إلى أن إيمان المسلم لايكتمل إلا إذا آمن بالله وملائكته وكل كتبه السماوية وكل رسله من آدم إلى محمد عليهم جميعا السلام، وكل ذلك يعد خصوصية للمسلم والمؤمن، وبما أن الإسلام ظهر أولا في البيئة العربية وآمن به العرب أولا ثم نقلوه إلى الشعوب الأخرى، إذا فإن هذه الخصوصية الثقافية (الهوية) هي من خصوصيات العرب والملامح المشكلة لهويتهم، ومن آمن بها بعد ذلك فهو حامل لبعض ملامح وسمات الهوية العربية الإسلامية.

• الجانب الاجتماعي، فمن المعروف أن الإسلام قد أعاد هيكلة وبناء المجتمع، ونظم العلاقات بين أفراده، وذلك من خلال نمط لم يكن آنذاك موجودا في أي ثقافة أخرى غير الإسلام، وهو نمط المساواة، إذ لافرق بين سيد وعبد ولابين حاكم ومحكوم، ولابين غني ولافقير إلا بالتقوى والعمل الصالح، وهو ما ألغى

نظـام التمايـز الطبقـي الـذي كان موجـودا في العـصر الجاهـلي، ومنـح المسـلم العـربي خصوصيـة وهويـة لم تتحقـق لغيره مـن شـعوب العـالم، ولم تـرد مـن قبـل في ثقافاتهـم، وحتـى الفكـر الفلسـفي عـبر التاريـخ بـدءا مـن الإغريقـي (اليونـاني) لم يتوصـل إلى هـذا النمـوذج[8] مـن المسـاواة بـين الأفـراد، واجتماعهـم جميعـا حـول كلمـة رجـل واحـد يتبعونـه لا سياسـيا ولاعسـكريا، وإنمـا روحانيـا لأنـه لايتكلـم عـن منطـق البـشر، وإنمـا عـن منطـق الوحـي والنبـوة، يقـول تعـالى: «**وَالنَّجْمِ إِذَا هَـوَى (1) مَـا ضَـلَّ صَاحِبُكُـمْ وَمَـا غَـوَى (2) وَمَـا يَنْطِـقُ عَـنْ الْهَـوَى (3) إِنْ هُـوَ إِلاَّ وَحْـيٌ يُوحَـى (4) عَلَّمَـهُ شَـدِيدُ الْقُـوَى (5) ذُو مِـرَّةٍ فَاسْـتَوَى (6) وَهُـوَ بِالأُفُـقِ الأَعْلَى (7)**» سـورة النجـم.

• الجانـب المعـرفي: حيـث أضيفـت إلى معـارف العـرب، معـارف جديـدة أوجدهـا الديـن تعلقـت بعلـوم اللغـة والفقـه والديـن والسياسـة، والأهـم في ذلـك جميعـه أن الإسـلام فتـح البـاب عـلى مصراعيـه لتلقـى العلـوم، ورفـع مـن شـأن العلـم والعلـماء، وعندمـا تقـدم التاريـخ بالعـرب عاشـوا أزهـي عصورهـم مـن التواصـل الفكـري مـع الحضـارات الأخـرى الفارسـية والساسـانية والرومانيـة واليونانيـة، ونقلـوا عنهـا، وترجمـوا، وأفـادوا وأنتجـوا، وظهـرت علـوم ومعـارف يحسـب للعـرب فيهـا السـبق، مـن كيميـاء وفلـك وطـب ورياضيـات ونبـات وتشريـح وحيـوان، وغيرهـا مـما تعـترف الحضـارات الأخـرى بسـبق العربيـة فيهـا، ولا أدل عـلى ذلـك مـن ترجمـة كتـب بـن سـينا في الطـب والموسـيقى وتدريسـها في الجامعـات والمعاهـد الغربيـة حتـى القـرن السـادس عـشر الميـلادي، وإن كان المسـار قـد انحـرف بعـد ذلـك، وتحولـت الأنظـار عـن العلـوم العربيـة، فذلـك بفعـل توقـف العـرب أنفسـهم، واسـتمرار المسـيرة في سـياق التطـور الطبيعـي لتقـدم العلـوم، وهـي أمـور ليـس مجالهـا هنـا، وإنمـا مـا نناقشـه هـو كيفيـة

8 - المدينـة الفاضلـة لأفلاطـون ذاتهـا تقـوم عـلى التمايـز الطبقـي الشـديد والتفرقـة بـين طبقـة الأسـياد والحكـماء وطبقـة العبيـد.

تشـكل هويـة ثقافيـة عربيـة ذات ملامـح فارقـة في الجانـب المعـرفي للعـرب، والـذي كان للإسـلام دور بـارز فيـه سـواء فيـما أوجـده مـن معـارف، أو فيـما دعـا إليـه ودفـع نحـوه عمـلا بأحاديـث الرسـول عليـه السـلام: « طلـب العلـم فريضـة عـلى كل مسـلم ومسـلمة»، و«اطلبـوا العلـم ولـو في الصـين»، و«اطلبـوا العلـم مـن المهـد إلى اللحـد»... إلـخ.

• الدولـة ونظـام الحكـم: إذ منـح الإسـلام العـرب خصوصيـة مثلـت جانبًـا مهـمًّا مـن جوانـب الهويـة، ونظمـت الحيـاة والعلاقـات بـين البـشر، ووضعـت القوانـين البشريـة والسـماوية المناسـبة لهـم، مـن خـلال القـرآن الكريـم، ثـم السـنة النبويـة المفـسرة لـه، قـال تعالى: «**وَمَـا مِـنْ دَابَّـةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِـيرُ بِجَنَاحَيْـهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُـمْ مَـا فَرَّطْنَـا فِي الْكِتَـابِ مِـنْ شَيْءٍ ثُـمَّ إِلَى رَبِّهِـمْ يُحْـشَرُونَ**» (الأنعـام:38)، وهـو مـا منـح الدولـة الإسـلامية خصوصيـة ثقافيـة تفرقهـا عـن غيرهـا مـن أنظمـة الحكـم ومـن الـدول غـير الإسـلامية.

• قضايـا التنميـة البشريـة: وبخاصـة قضايـا المـرأة، والحريـات التـي منحهـا الإسـلام لهـا بـدءا مـن اختيـار زوجهـا، ومـرورا بذمتهـا الماليـة، وانتهـاء بحقهـا في المـيراث، وحقهـا في الطـلاق، وحقهـا في حيـاة خاصـة كريمـة، وحريـة الكلمـة لـكل البـشر، وحريـة التجـارة مادامـت مشروعـة لا حـرام فيهـا، وحريـة التنقـل، وحريـة العقيـدة ذاتهـا، يقـول تعـالى «**لا إِكْـرَاهَ فِي الدِّيـنِ قَـدْ تَبَـيَّنَ الرُّشْـدُ مِـنَ الْغَـيِّ**» (البقـرة:256)، وحـق اليتيـم في الكفالـة، والجائـع في الإطعـام، وحـق البـشر جميعهـم في الأمـن والأمـان، والحـق في المسـاواة والعدالـة الاجتماعيـة، وأخـذ المظلـوم لحقـه مـن الظـالم مهـما كانـت مكانتـه، وكل هـذا يمثـل خصوصيـة لم تـرد في ثقافـة مجتمـع غـير الثقافـة الإسـلامية.

وقـد مثلـت هـذه الجوانـب وغيرهـا سـمات الهويـة الثقافيـة للمجتمـع العـربي في العـصر الإسـلامي، وبخاصـة مـع بدايـات الإسـلام، ثـم أضيفـت ملامـح أخـرى تـم اسـتعارتها مـن حضـارات أخـرى وصبغهـا بالصبغـة العربيـة، مثـل فنـون العمارة في

العـصر العبـاسي والفاطمـي، إذ لم تكـن هـذه الفنـون مـن ملامـح الثقافـة العربيـة، وإنمـا أخذهـا العـرب عـن الفـرس، ثـم صاغوهـا في ثـوب عـربي وبزخرفـات عربيـة، مسـتعينين بالقـرآن الكريـم والسـنة والنبويـة والشـعر العـربي، وغـير ذلـك مـن سـماتهم الأصيلـة.

إلا أن هـذه الهويـات الإسـلامية وبخاصـة في الجوانـب المعنويـة منهـا، بـدأت في الذوبـان مـع نهايـات العـصر العبـاسي، وشـيئا فشـيئا مـع العصـور التاليـة، ومعـه بـدأت تتماهـي الهويـة العربيـة الإسـلامية وتبهـت معالمهـا.

الهوية الثقافية للشخصية المصرية:

الشـخصية المصريـة شـخصية مركبـة، تعاقبـت عليهـا حضـارات، وصنعـت هـي حضـارات، وتشـكلت عـبر قـرون طويلـة مـن الاسـتقرار وفي سـياق دعائـم ونظـم، وارتبطـت بالمـكان وبخاصـة نهـر النيـل الـذي كان لـه كبـير الأثـر في تكوينهـا، وتكوينـه وقـد مـرت الشـخصية المصريـة بعـدة مراحـل تاريخيـة تشـكلت عبرهـا هويتهـا الثقافيـة يمكـن رصدهـا مـن خـلال جـدران المعابـد قديمـا والوثائـق التاريخيـة حديثـا:

ففـي عصـور الفراعنـة، عاشـت الشـخصية المصريـة اسـتقرارا دينيـا وبخاصـة في ظـل عقيـدة الإيمـان بالفرعـون الأعظـم والمعابـد الدينيـة، واسـتقرارا اجتماعيـا تمثـل في تنظيـم طبقـات المجتمـع (الآلهـة – الكهنـة – الكتـاب- الشـعب)، واسـتقرارا ثقافيـا تمثـل في وجـود مـدارس ونظـم تعليميـة يسـمح لمـن يجتازه بتغيـير طبقتـه الاجتماعية وتـولى المناصـب، ونظامـا عسـكريا تمثـل في وجـود نظـام للجيش وحـروب وعـداوة مع المغيريـن عـلى وطنهـم، ونظامـا طبيـا تدلنـا عليـه عمليـات التحنيـط التـي لم تـزل بعد سرا مـن أسرار الحيـاة حتـى يومنـا هـذا، إضافـة إلى وجـود فنـون وآداب وإنتـاج فكـري سـجلته جـدران المعابـد والنقـوش والرسـوم الفرعونيـة.

وفي العـصر المسـيحي، تشـكلت الشـخصية المصريـة في ظـل الثقافـة المسـيحية،

وتمثلت في مصر كل المذاهب، ولم تزل متحققة حتى الآن (كاثوليك – أرثوذكس- بروتستانت)، وهي متعايشة جنبا إلى جنب من جهة، ومتعايشة جميعها مع المجتمع الإسلامي من جهة أخرى، والثقافة المسيحية لها هويتها الثقافية في طقوسها الدينية ومعارفها، ونظامها الكنسي والبابوي، وهو ما جعل مصر تسمى بأرض القبط في بعض المصادر التاريخية، والذي تم اشتقاق الاسم اللاتيني إيجبت منه.

وفي العصر الإسلامي استوعبت الشخصية المصرية الإسلام، وأسهمت في مراحل الازدهار والإنتاج الفكري على اختلاف المذاهب والسياسات والنظم التي مرت على مصر، بدءا بالفتح الإسلامي على يد عمرو بن العاص، ومرورا بالعصر الفاطمي وتحول مصر إلى شيعية، ثم عودة مرة أخرى إلى المذهب السني على يد صلاح الدين، واستمرارا في مسيرة الحكم الإسلامي فيما بعد تحت ظل المماليك والعثمانيين الأتراك، وما يذكر لمصر من دور تاريخي في الحفاظ على الثقافة الإسلامية من خلال الأزهر الشريف، وبخاصة في عصر الموسوعات عندما توقف العرب عن الإنتاج، وظلت مصر هي المنارة الوحيدة التي تنتج ثقافة، حيث نشأت في هذا العصر مدرسة مصرية شهيرة اختصت بتأليف الموسوعات في شتى علوم الأدب والسياسة والتاريخ والاجتماع والعلوم الإنسانية، وتزعم هذه المدرسة شهاب الدين النويري (ت 733هـ) صاحب الموسوعة الشهيرة « نهاية الأرب في فنون الأدب « وجاءت في 30 مجلداً، والتي نظر فيها إلى الأدب بمفهومه الواسع، والفن بمفهومه العام، وقسمها إلى خمسة أقسام رئيسة، وقد بدأ في السماء والآثار العلوية، والأرض والمعالم السفلية، في الفن الأول. وانتهى بالفن الخامس: في التاريخ، ويشتمل على خمسة أقسام كل قسم تحته أبواب والقسم الخامس خصصه: لأخبار الملة الإسلامية، وذكر شيء من سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وسيرة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين. وقد بلغ من

قيمـة هـذه الموسـوعة أن ترجمـت للغـة اللاتينيـة منـذ القـرن الثامـن عـشر.

وكان مـن أهـم الموسـوعات التـي وضعـت في هـذا العـصر المعجـم الأكـبر في تاريـخ العربيـة، وهـو لسـان العـرب لابـن منظـور المـصري (ت711هــ)، والـذي لم يـأت بعـده في تاريـخ العربيـة سـوى معجمـين فقـط حتـى يومنـا هـذا، هـما (القامـوس المحيـط) للفـيروز آبـادي (ت 817 هــ) و(تـاج العـروس) للزّبيـدي (ت 1205 هــ). ومـن المعـروف أن معجـم لسـان العـرب أشـمل معاجـم العربيـة للألفـاظ ومعانيهـا.

كـما وضـع ابـن فضل اللـه العمـرى (ت 749 هـ) – موسـوعته التاريخيَّة (مسـالك الأبصـار) والتـي أرخ فيهـا لـكل شـئ: الملـوك، والعلـماء، والوقائـع ؛ وتحـدَّث عـن: الأقاليـم، النبـات، الحيـوان.. إلـخ. وقـد كان ابـن فضـل اللـه مـن أصـل شـامى، ثـم توطَّـن فى مـصر وارتبـط بهـا بقيـة عمـره، حتـى أن النـاصر محمـد بـن قـلاوون، لمـا أراد أن يعاقبـه، نفـاه إلى الشـام.. ولمـا رضى عنـه، بعـد حـين ؛ أعـاده إلى القاهـرة.

ويـأتي ابـن حجـر العسـقلانى. بمؤلفاتـه فى التاريـخ وعلـوم الديـن، وقـد كانـت لأعمالـه أصـداءٌ واسـعة فى أرجـاء الأرض. ويذكـر المقريـزى، أن ابـن حجـر حـين انتهـى مـن (فتـح البـارى بـشرح صحيـح البخـارى) أقيـم لـه حفـلٌ خـارج سـور القاهـرة، أُنفقـت فيـه عـلى الذبائـح وحدهـا خمسـائة دينـار! ويـوم الحفـل وصلـت وفـودٌ مـن ملـوك الأرض، تطلـب نسـخاً مـن الكتـاب.

ثـم يـأتي علامـة عـصره جـلال الديـن السـيوطى، (ت 911 هــ). بمؤلفاتـه التـي يقـال أنهـا زادت عـلى 300 مؤلـف ورسـالة، منهـا فى علـوم اللغـة (المزهـر) وفى علـوم الديـن (جمـع الجوامـع) وفى التاريخ (حُسـن المحـاضرة).. إضافـة إلى مؤلفات وكتـب جـاءت عـلى شـكل رسـائل، منهـا: منهـل اللطائـف فى الكنافـة والقطائـف، در الغمامـة فى الطيلسـان والعمامـة، الـدوران الفلـكى عـلى ابـن الكـركى.. والوشـاح، ونـواضر الأيـك.

أمـا في غـير الأدب، فقـد كانـت هنـاك محـاولات سـابقة عـلى النويـري، تمثلـت

في جهـود عـلاء الديـن القـرشى (ابـن النفيـس) الـذى وضـع مـا يقـرب مـن عـشرة شروح عـلى موسـوعة ابـن سـينا (القانـون فى الطـب) بهـدف إعـادة بعثهـا مـرةً أخـرى إلى أذهـان المشـتغلين بالطـب، كـما أنـه دون أكـبر موسـوعة علميَّـة فى التاريـخ الإنسـانى بعنـوان «الشـامل فى الصناعـة الطبيَّـة»، كان ينتـوي أن تكـون فى ثلاثمائـة مجلـد، أنجـز منهـا ثمانـين ؛ ثـم وافتـه المنيـة (687 هــ) بالقاهـرة.

هـذا النتـاج الثقـافي وغـيره ميـز الشـخصية المصريـة، ومنحهـا هويـة معقـدة نسـبيا، وبخاصـة عندمـا أضيفـت إليهـا ملامـح أخـرى اكتسـبتها مـن أنظمـة الحكم الملـكي والحكـم الجمهـوري، ومـا أكـثر التجـارب التـي تمـر بهـا الشـخصية المصريـة، والتـي تسـهم جيـلا بعـد جيـل في الإضافـة إلى هـذه الهويـة وصقلهـا بمـا جعـل النتـاج العـام لهـذه الشـخصية متراكـب يصعـب الفصـل بـين أبعـاده، ويقـترب مـن حـد التناقـض أحيانـا، فالشـخصية المصريـة لا تخضـع في حياتهـا لقانـون واحـد ولا تنتمـي في ممارسـاتها اليوميـة لتوجـه واحـد، وإنمـا تكشـف عـن نمـاذج عجيـب يجمـع بـين الدينـي والدنيـوي، وبـين الفرعـوني والإسـلامي والمسـيحي وجملـة الأعـراف والتقاليـد التـي تشـكلت بفعـل الممارسـات الاجتماعيـة عـبر قـرون طويلـة، مـما أنتـج هـذه الهويـة وجعلهـا تبـدو متناقضـة في ظاهرهـا، وإن كانـت غـير ذلـك في داخلهـا وفي كنـه هويتهـا / هوياتهـا.

المحتويات

المؤلف في سطور

محمـود الضبـع أسـتاذ دكتـور مسـاعد النقـد الأدبي الحديـث بكليـة الآداب والعلـوم الإنسـانية، جامعـة قنـاة السـويس.

بعض المؤلفات (كتب):

- غوايـة التجريـب، حركـة الشـعرية العربيـة في مطلـع الألفيـة الثالثـة، الهيئـة العامـة للكتـاب، مـصر، ٢٠١٤م.

- طـه حسـين، لغـو الصيـف وجـد الشـتاء، قـراءة ثقافيـة، دار الهـلال، القاهـرة، ٢٠١٤م.

- الروايـة الجديـدة، قـراءة في المشـهد العـربي المعـاصر، المجلـس الأعـلى للثقافـة-، القاهـرة، ٢٠١٠م.

- أدب الأطفـال بـين الـتراث والمعلوماتيـة-، الـدار المصريـة اللبنانيـة-، القاهـرة، ٢٠٠٩م.

- قصيـدة النـثر وتحـولات الشـعرية العربية-، الهيئـة العامة لقصور الثقافـة-، القاهرة -، ٢٠٠٣م.

- شـتاء سـيجتمع الأصدقـاء، ديـوان شـعر، الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب، ٢٠١١م.

- كتاب النفس والفتنة، ديوان شعر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٣م.

- المناهـج التعليميـة صناعتهـا وتقويمهـا، مكتبـة الأنجلـو المصريـة–، القاهـرة، ٢٠٠٦م.

تقارير دولية:

- تقرير حالة الشعر في مصر من ١٩٨٠ إلى ٢٠١٠م، المركز القومي للبحوث الاجتماعية، القاهرة ٢٠١٤م.

- تقرير التربية في عالم متغير، مؤسسة غرناطة، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٣م.

- تقرير حالة الأدب في مصر، مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٥ م

بعض الأبحاث المنشورة:

- اتجاهات التجريب فى مشهد الشعر المصري المعاصر، مجلة فصول، ٢٠٠٢م.

- تشكلات الشعرية الروائية، فصول، ٢٠٠٣م.

- الإيقاع الشعرى وقصيدة التفعيلة، مجلة البيان، الكويت، ٢٠٠٣م.

- تحولات اللغة الروائية، ملتقى القاهرة الرابع للإبداع الروائي العربي «الرواية العربية الآن» – المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠٨م.

- سؤال الهوية والتأسيس السردي في أدب علي الدوعاجي، اتحاد الكتاب التونسيين، تونس، ٢٠٠٩م

- الشعر المعاصر وآليات التلقي، مجلة العلوم الإنسانية، الكويت، ٢٠١٠م.

- الفكري والفلسفي في أدب نجيب محفوظ، دورية نجيب محفوظ، ٢٠١٠م.

- «الرواية والتطور التكنولوجي أفق مفتوح أم مأزق حضاري»، ملتقى القاهرة الدولي الخامس للإبداع الروائي «الرواية العربية إلى أين ؟»، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ديسمبر ٢٠١٠م.

- آليات اشتغال الديني في الخطاب الشعري، قراءة ثقافية في تناص الشعر، الأردن، ٢٠١٢م.

- السيرة الذاتية وسرد الذات بين الواقعي والمتخيل الروائي، ملتقى الشارقة التاسع للسرد العربي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٢م.

- حضور التاريخ المنسي في الرواية العربية المعاصرة، ملتقى الباحة الخامس للرواية العربية «الرواية العربية الذاكرة والتاريخ»، السعودية،٢٠١٢م.

- المتخيل السردي وأسئلة ما بعد الحداثة في السرد العربي المعاصر، مؤتمر عمان الأول للسرد «السرد وأسئلة الكينونة»، مسقط، ٢٠١٢م.

- تنوع الحضور الثقافي في النص المحفوظي، الملتقى العربي للسرديات، تونس، ٢٠١٤م.

- اتجاهات أدب الأطفال في نهاية الألفية الثانية وبداية الألفية الثالثة، مجلة دواة، العراق، ٢٠١٤م .